

الخطاب الدعوي السياسي عند الإمام ابن تيمية في نصحه لملك قبرص
(الرسالة القبرصية)

الخطاب الدعوي السياسي عند الإمام ابن تيمية في نصحه لملك قبرص



د. حسن بن محمد سفور*

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ومادياً للناس أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سلك نهجه إلى يوم الدين: أما بعد: فتعتبر الدعوة إلى الله ونصرة الحق والوقوف مع الضعفاء والمغلوبين على أمرهم رسالة الأنبياء والرسل والمصلحين من العلماء العاملين وهي أيضاً مطلباً شرعياً، ونظاماً وعرفاً دولياً أقرته الشريعة الإسلامية والقوانين والأعراف الدولية.

غير أنه ينبغي في نشر الدعوة والتعريف بالظلم والتنديد بالظالمين سلوك طرائق متعددة ومناهج مختلفة حسب مقتضى الحال - قال العلامة العمامد ابن كثير عمدة المفسرين (٧٧٤هـ) في قوله تعالى «وقولوا للناس حسناً» أي كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، كما قال الإمام الحسن البصري أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح وهو كل خلق حسن رضيته الله (١) وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك.

ولئن سارت الأساليب في هذا أمداً طويلاً على وتيرة واحدة في أوقات وأزمنة مختلفة فإن متغيرات العصور وتقلبات الديمور واختلاف الظروف تتطلب تنوعاً في الخطاب الدعوي يمثل ذلك ما تناوله المنهج القرآني والسنة النبوية الشريفة في الحث على ذلك.

ولاشك أن الانفتاح على الناس في عالم تتنوع فيه الأساليب الإعلامية والوسائل

الاتصالية و اللقطات الفضائية أمراً ضرورياً نافعاً بناء. الأمر الذي يدعونا فيه ديننا إلى عدم الانغلاق ويحثنا فيه على التفتح على لغة العصر والمخاطبة بسلاحه وأدواته.

وإذا كان الخطاب القرآني قام على أسس من التفتح على الجمهور وحث على ذلك في قوله تعالى ﴿يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ فإن ما قام به سيد الدعاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بخطابه الدعوي للناس جميعاً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لدليل وحجة على تنوع أساليب الخطاب الدعوي واستغلال الوسائل التكنولوجية الحديثة والفضائيات المختلفة في إيصال الخير للناس وتوضيح الحقائق.

وإنه ليجدر بالأمة الإسلامية قادة وأمرء وساسة و علماء وفقهاء ومفكرين أن يتخذوا من الخطاب الدعوي القائم على الموضوعية، والوسطية والعدل، والإنصاف منهج يسرون عليه في جميع قضاياهم التي يرغبون طرحها بما يلائم النازلة ومخاطبة العقل والضمير، والحواس.

الفقه السياسي وتنوع الخطاب

ولقد ضرب لنا فقهاءنا السياسي الإسلامي أمثلة على هذا النهج الواعي المتفتح وذلك فيما خطبته يد شيخ الإسلام الإمام الجليل ابن تيمية (١) عندما بعث برسالة سماها الفقهاء بوثيقة شيخ الإسلام وأطلق عليها فقهاء السياسة الشرعية «الرسالة القبرصية» إلى ملك قبرص سراجواس - يسأله فيها النظر والنصر والعدل في أسرى المسلمين الذين وقعوا في سجن دولته وحبسوا ظلماً وعدواناً، مطالباً إياه باطلاق سراحهم فك أسرهم منتهزاً الفرصة بخطابه الدعوي في توضيح أمر الدين وسلامة المعتقد.

أ- أهمية الرسالة ومصادرها

تأتي أهمية هذه الرسالة من خلال دراستها من قبل الفقهاء والمفكرين وعلماء السياسة الشرعية فالإمام ابن القيم الجوزية ت (٦٩١هـ) التلميذ النجيب والطالب الوفي لشيخه الإمام الجليل ابن تيمية أشار إليها في رسالته القيمة أسماء مؤلفات ابن تيمية (٢) وقد اورد اسم الرسالة القبرصية في باب الرسائل من المؤلف المذكور تحت عنوان «رسالة كتبها إلى صاحب قبرص في مصالح تتعلق بالمسلمين» (٣) مبيناً أن مصادرها تقوم على أسس من معالم الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية ومصادر التشريع، ومقاصد الشريعة الإسلامية.

ب- السبب الداعي إليها

المتأمل بالاستقراء والتفكير والتحليل في فحوى الرسالة يجد أن الداعي إليها

أمران:

أولهما: تصحيح المفاهيم العقديّة لمن يجهلها من الأقسام
ثانياً: الرد على كتاب ورد من قبرص يحتج لدين النصارى ومعتقداتهم (٤).
ثالثاً: الإحسان إلى أسرى المسلمين وفك قيدهم وإطلاق سراحهم من قبل الملك.
جـ- خلفيّة وقوع الأسرى

من المعلوم أن أسباب وقوع النازلة في السبب الثالث المشار إليه سابقاً هو
فقدان سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض المتوسط منذ قيام الحركة
الصليبيّة وتوافد حملاتها إلى منطقة الشرق الأوسط وتمكن الغرب المسيحي من
بسط السيطرة على سواحل البحر وجزره، وتجارته، وحصر أمّله، ولقد كانت
مملكة قبرص مشجعة كل من يشارك في حرب المسلمين ففتحت أبوابها ومرافئها
لكل مغامر يريد أن يشارك في حرب المسلمين عسكرياً، واقتصاديّاً، وسياسياً.
علماً بأن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي ومقيدي الوثائق من هذا العدوان
الساخر الصارخ. فأعدوا العدة، وقابلوا ذلك بحملات، وغارات عديدة رداً على
عدوان الظالمين وظلم المعتدين. وكان نتاج ذلك وقوع عدد من المسلمين أسرى في
أيدي القبارصة الصليبيين ظلماً وعدواناً.

د- الموقف الشجاع للعالم

هنا ما كان من شيخنا الجليل الإمام ابن تيمية وهو العالم، والفقيه والمصلح،
والسياسي والموجه إلا أن رفع التماساً قوياً إلى مقام ملك قبرص يسأله فيه
مساعدة هؤلاء الأسرى ونجدهم والإحسان إليهم ورفع الظلم والعدوان والتعذيب
بهم وذلك لما بلغه من فطرة أخلاق هذا الملك ولطفه، ورقته، ورفقه.

والخطاب وإن كان هدفه هذا إلا أنه تضمن مرامي وأهداف وغايات أرادها الشيخ
للملك خاصة وهو «تعريف بالعلم، والدين وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة
الله كما يجب وكما أمر. فهذا لعمرى خير له من ملك الدنيا بحذافيرها وهو الذي
بعث به المسيح عليه السلام وعلمه الحوريين (٥).

نصوص من الرسالة:

بدء شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رسالته القيّمة إلى ملك قبرص بقوله «من
أحمد بن تيمية إلى سراجوس عظيم أهل ملته ومن تحوط به عنايته من رؤساء
الدين وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، واتباعهم سلام على من
اتباع الهدى».

ثم أبان لهذا الملك عظم المواثيق التي حض بها الأنبياء صلوات الله وسلامه
عليهم وهم نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم وعلى
إخوانه من الأنبياء والمرسلين مبيناً له الحكمة من خلقه للخلائق جل وعلا بقدرته
وإظهار أمره ومشيئته وحكمته ورحمته فيهم.. وقال رحمه الله «وكانت بنو
إسرائيل أمة قاسية عاصية تارة يعبدون الأصنام، والأوثان، وتارة يعبدون الله،

وتارة يقتلون النبيين بغير الحق، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل. فلعنوا أولاً على لسان داود وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم» (٦).

وقد ذكر المفسرون في كتبهم أن المستعرض لتاريخ هذه الشرذمة من بني إسرائيل ليأخذ العجب من الفيضات التي أفاضها الله عليهم ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار مما يدل دلالة واضحة وشهادة بيّنة على القسوة والاعتداء والتنكر لرسول الهداية والتوجيه فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين (٧).

ولقد حاور الشيخ هذا الملك في رسالة بأسلوب يليق بمكانة الملوك وحسن مخاطبتهم مبيناً له «أن الدين الذي يتقرب العباد به إلى الله لا بد أن يكون الله أمر به وشرعه على السنة رسله وأنبيائه.. وإلا فالبدع كلها ضلالة، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون.. وكذا فعمامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً، ولا بعث بها رسولاً، لكن فيهم رافة ورحمة وهذا من دين الله» (٨).

ثم إنه بتواضع العالم المحنك البصير عرض على الملك وسائل متعددة تدل على وظيفية العلماء في تبيان الحق والدعوة إلى الخير فقال رحمه الله (وأن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير لأتيت وجاوبته عن مسائل يسألها، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص) (٩) لمصالح في الدين والدنيا إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عاملته بما يقتضيه عمله فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ومحمد صلى الله عليه وسلم خاصة ما أيد به دينه وأذل الكفار والمنافقين» (١٠).

وتناول بالشرح والتفصيل أمر الأسرى من المسلمين، وأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير فقال رحمه الله (هذا وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلاً، بل هم المحمودون على ما فعلوه فإن الذي أطبقت العقلاء على الإقرار بفضله هو دينهم حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين، فقد قامت البراهين على وجوب متابعتة.. فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته، ينتقم لهم رب العباد والبلاد كما ينتقم لغيرهم.. وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن والمعاونة على النظر في العلم واتباع الحق وفعل ما يجب، والأصل في ذلك أيها الملك أن تستعين بالله، وتسأله الهداية وتقول: اللهم أرني الحق حقاً وأعني على اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وأعني على اجتنابه، ولا تجعله مستبهماً علي فاتبع الهوى، وقل اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط

مستقيم» (١١).

وختم العلامة الشيخ ابن تيمية كتابه موجهها نصحه لهذا الملك لما ينفعه في دينه ودنياه قائلاً (و الكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة ومما شيئان).

أحدهما: له خاصة وهو معرفته بالعلم والدين وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر، فهذا خير له من ملك الدنيا بحدافيرها وهو الذي بعث به المسيح عليه السلام وعلمه الحواريين.

الثاني له وللمسلمين، وهو مساعدة الأسرى الذين هم في بلادهم وإحسانه إليهم والأمر على رعيته بالإحسان إليهم والمعاونة للمسلمين على خلاصهم، فإن في الإساءة إليهم دركاً على الملك في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين، وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك.

كما أبان سماحته رحمه الله أنه كلما كثرت الأسرى عند الملك كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص، سيماء عامة هؤلاء قوم فقراء، وضعفاء، ليس لهم من يسعى فيهم إلا العلماء التي هي وظيفتهم إعلاء كلمة الحق وقمع الظلم ومعاونة وتبصير الحكام لما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

ثم ختم الرسالة موصياً الملك بقوله (والله يعلم أنني قاصد للملك الخير لأن الله تعالى أمرنا بذلك وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله وإلى دينه وندفع عنهم شياطين الإنس والجن، والله المسؤول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ويختم له بخاتمة خير) (١٢).

الخاتمة

المتأمل في هذه الوثيقة السياسية الهامة والنصيحة المخلصة من علم من أعلام الإسلام يستوقفه أموراً منها:

أولاً: أن وظيفته العالم والفقير النصح والإخلاص لأئمة المسلمين وولاية أمورهم والحكام في كل البلاد الإسلامية وغير الإسلامية.

ثانياً: اهتمام العالم الديني بأمور الأمة الإسلامية الخاصة والعامة.

ثالثاً: التدخل بالنصح والتوجيه والإرشاد في القضايا السياسية الخارجية والداخلية للدولة الإسلامية مما يعود على رعاية الدولة المسلمة والأقليات بالخير والنفع العام وهذا قد تجلّى من خلال سعي هذا الإمام العالم الجليل في إطلاق أسرى المسلمين وحرصه وعنايته بأمور الراعي والرعية.

رابعاً: بيان سعة وجزارة علم وفقه العلامة الشيخ ابن تيمية ومعرفته بعقائد الفرق والملل وخاصة النصارى وفرقهم والفرق الإسلامية.

خامساً: منح الله عز وجل لهذا العالم الجليل لمملكة المجادلة بالحسنى والقيام

بالمناظرة بالحجة البالغة والدليل الساطع ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

وبعد :

فإن هذه الرسالة تعد من درر الفقه السياسي الإسلامي لما تميزت به من بيان رائع وأسلوب قوي، ووضوح المطلب، وحسن مخاطبة ذو المكانة العالية من سلاطين وملوك بعقل واعي، منير، وعاطفة رقيقة رحيمة تأخذ بالشدة واللين وتطوي في ثناياها شموخ المسلم وعزة الإسلام ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وشهامة ونجدة المسلم الغيور على أمته وأمله.

فرحم الله هذه الثلة المباركة من العلماء العاملين وسلك الله بنا طريق عباده المخلصين في القول والعمل إنه نعم المولى ونعم النصير وهو حسبي ونعم الوكيل.

المراجع والمصادر :

- ١ - تفسير الإمام العماد ابن كثير دار المعرفة - بيروت.
- ٢ - تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي.
- ٣ - الرسالة القبرصية، عناية وتعليق علاء دمج، دار ابن حزم ١٤٠٨ هـ.
- ٤ - في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق - بيروت ١٤٠٢ هـ.
- ٥ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى للإمام ابن القيم - مطبوعات الجامعة الإسلامية ١٣٩٦ هـ.
- ٦ - الملل والنحل للإمام الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٥ هـ.
- ٧ - الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٨ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح للإمام ابن تيمية - ١٣٩٠ هـ.
- ٩ - أحكام صنعة الكلام: لذي الوزارتين أبي القاسم الأشبيلي، تحقيق د. محمود رضوان الداية - عالم الكتب ١٤٠٥ هـ.
- ١٠ - كتاب المعرفة في الجدل للإمام الشيرازي، تحقيق عبدالمجيد تركي، دار الغرب الإسلامي.
- ١١ - المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية: سعيد شبار - كتاب الأمة، قطر، العدد ٧٨، رجب ١٤٢١ هـ.
- ١٢ - معجم الفاظ العقيدة - تصنيف أبي عبدالله عامر عبدالله فالح - مكتبة العبيكان ١٤٢٠ هـ.
- ١٣ - كتاب الجدل على طريقة الفقهاء: تصنيف الإمام شيخ الإسلام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي - مكتبة الثقافة الدينية قطر.
- ١٤ - ابن تيمية: حياته وعصره: للشيخ محمد أبو زهرة - القاهرة ١٩٥٢ م.

* أستاذ نظم الحكم الإسلامي جامعة الملك عبدالعزيز